المقتبس

الجزء العاشر من المجلد الثاني

شوال سنة ١٣٢٥ الموافق نوفمبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٠٧

صدور المشارقة والمغاربة

لسانة الدين ابن الخطيب

٧١٣ — ٧٧٦

قلما يتأتى لعالم وَلي المناصب الرفيعة في الدول ان يبارك له في وقته فيجمع على أحسن وجه القيام باعبائها الى الاعمال العلمية . والامارة والعلم قلما يجتمعان وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . من اجل هذا رأينا مثل ابن حزم وابن الهيثم يزهدان في الوزارة بل يحتالان الى الخلاص من توليها علماً منهما بانها صارفة لهما عن التمحض لخدمة العلم والتوفر على التصنيف . وقلّ في رجال هذه الامة من جمعوا بين المزيتين ولا بة الاعمال وصرف اوقات الفراغ في التصنيف ونمية ملكة العلم على ما كان شأن القاضي الفاضل ولسان الدين ابن الخطيب

فمترجمنا هذا هو احد مفاخر الاندلس ونوابغها علماً وعملاً لم تُلهه اعمال الوزارة عن النظر في علوم كان السبيل في وصوله اليها وساعده زيادة على ما كان يحافظ عليه من اوقاته انه كان مبتلىً بالارق يسهر الليل الا اقله ولذلك قيل له ذو العمرين لانه كان يعمل في ليله كما يعمل في نهاره . فلا عجب بعد هذا ان عدت مصنفاته بستين مصنفاً لو خلف بعضها عالم انقطع للعلم جملة لعدت غريبة في بابها فما بالك بابن الخطيب يتولى امور الناس والاندلس قد اشرفت على السقوط والفتن بين الامراء على ساق وقدم والدسائس عليه من كل جهة

يكتب ويفكر وقد ترجمه ابن خلدون فقال : اصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة كان له بها سلف معروفون في وزارتها وانتقل ابوعبدالله الى غرناطة واستخدم لملوك بني الاحمر واستعمل على مخازن الطعام ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل واخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الادب وأخذ عن أشياخه وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع النقاء الجيد منه وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يجارى فيهما .

وامتدح السلطان ابا الحجاج من ملوك بني الاحمر وملأ الدولة بدايحه وانتشرت في الآفاق فدعاه فرقاه السلطان الى خدمته واثبته في ديوان الكتاب بابه مرؤسًا بابي الحسن ابن الحباب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية ولما هلك ابن حباب سنة تسع واربعين وسبعمائة ولى السلطان ابوالحجاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتاب بابه وثناه بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة ثم داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشاركات فجمع له بها أموالاً وبلغ به المخالصة الى حيث لم يبلغ بأحد من قبله وسفر عنه الى السلطان ابي عنان ملك بني مرين بالعدوة معزيًا بأبيه السلطان ابي الحسن فجلى في اغراض سفارته . ثم هلك السلطان ابوالحجاج وبويع ابنه محمد بالامر لوقته فأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لابيه واتخذ لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب رديفًا له في أمره وتشاركا في الاستبداد معًا . ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرًا الى السلطان ابي عنان مستمدين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الاندلس وفقهائها استأذنه في انشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه فاذن له وانشد وهو قائم ابياتًا اهتز السلطان لها فاذن له في الجلوس وقال له قبل ان يجلس : ما ترجع اليهم الا بجميع عطائهم . ثم انثال كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع مطالبهم . قال القاضي ابو القاسم الشريف : لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان الا هذا . وبعد ذلك اعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه الى ان شفع فيه ثم سار في ركاب السلطان الى وادي آش قادمين على السلطان ابي سالم فارغد هذا عيش ابن الخطيب في الجراية والاقطاع ثم استأذنه السلطان في التحول الى جهات مراكش والوفود على آثار الملك بها فاذن له وكتب الى العمال بتحافه فبادروا في ذلك وحصل منه على حظ وعند مأمنه بسلا في قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان ابي الحسن وانشد قصيدته على روية الراء الموصولة يرثيه ويستثير

* استرجعت فسالت مدامعه *

ان بان منزله وشطت داره قامت مقام عيانه اخباره
فتسم زمانك عبرة او غبرة هـذا ثراه وهـذه آثاره

فكتب السلطان ابو سالم في ذلك الى اهل الاندلس بالشفاعة فشفعوه واستقر هو بسلا منبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة ثم عاد السلطان محمد المخلوع الى ملكه بالاندلس فاستقدم ابن الخطيب من سلا ورده الى منزلته كما كان . وبعد ذلك فصل عن الوزارة ثم أُعيد الى مكانه من الدولة من علو يده وقبول اشارته وادركته الغيرة من عثمان بن يحيى مقدم القوم في الدولة ونكر على السلطان الاستكفاء به والتخوف من هؤلاء الاعياص على ملكه فحذره السلطان واخذ في التدبير عليه حتى نكبه وابناه واخوته واودعهم المطبق ثم غرّبهم بعد ذلك وخلا لابن الخطيب الجوّ وغلب على هوى السلطان واخذ ودفع اليه تدبير المملكة وخلط بينه بندمائه واهل خلوته وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت اليه الوجوه وعلقت عليه الآمال وغشي بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية فيه وقد صمّ السلطان عن قبولها وتما الخبر بذلك الى ابن الخطيب فشمر عن ساعده في التفويض عنهم .

وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية وربما خيل ان السلطان مال الى قبولها وانهم قد احفظوه عليه فاجمع التحول عن الاندلس الى المغرب واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية وسار اليها في لمة من فرسانه ومعه ابنه علي الذي كان خالصة السلطان وذهب لطيته فلما حاذى جبل الفتح فرضة الجاز الى العدوة مال اليه اذ ندّ بين يديه فخرج قائد الخيل لتلقيه وقد كان السلطان عبدالعزيز لما العدوة قد اوعز اليه بذلك وجهز اليه الاسطول من حينه فاجاز الى سبتة وتلقاه بها بانواع التكرمة وامتثال الاوامر ثم سار بقصد السلطان فامتزت له الدولة واركب السلطان خاصته لتلقيه واحله بمجلسه محل الامن والغبطة ومن دولته بمكان الشرف والعزة واخرج لوقته كاتبه ابا يحيى بن ابي مدين سفيراً الى الاندلس في طلب اهله وولده فجاء بهم على اكمل الحالات من الامن والتكرمة

ثم لغط المنافسون له في شأنه واغروا سلطانه بتتبع عثراته وابدوا ما كان كامناً في نفسه من سقطات دابته واحصاء عصابته وشاع على السنة اعدائه كلمات منسوبة الى الزندقة احصوها عليه ونسبوها اليه ورفعت الى قاضي الحضرة الحسن بن الحسن فاستراعها وسجل عليه بالزندقة وراجع صاحب الاندلس رأيه فيه وبعث القاضي ابو الحسن الى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات وامضاء حكم الله فيه فصمّ لذلك وانف لذمته

ان تخفر وجواره ان يردى وقال لهم: «هلاّ انتقمتم وهو عندكم وانتم عالمون بما كان عليه واما انا فلا يخلص اليه بذلك احد ما كان في جواري ثم رفو الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الاندلس في جملته فلما هلك السلطان عبدالعزيز سنة اربع وسبعين سار هو في ركاب الوزير ابي بكر بن غازي القائم بالدولة فنزل فاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات وحفظ له القائم بالدولة الرسوم التي رسمها السلطان المتوفى. ولما استولى السلطان ابو العباس على البلد الجديد دار ملكه قبض على ابن الخطيب واودعوه السجن وطيروا بالخبر الى السلطان ابن الاحمر فبعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب وهو ابو عبد الله بن زمرك فقدم على السلطان ابي العباس واحضر ابن الخطيب بالمشورة في مجلس الخاصة واهل الشورى وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملإ ثم رُدّ الى محبسه واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه وافتى بعض الفقهاء فيه ودس سليمان بن داود رديف وزير السلطان لبعض الاوغاد من حاشيته بقتله فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاؤا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الاحمر وقتلوه خنقاً في محبسه واخرجوا شلوه من الغد فدفن ثم اصبح من الغد على شأفة قبره طريحاً وقد جمعت له اعواد واضرمت عليه ناراً فاحترق شعره واسود بشره واعيد الى حفرته وكان في ذلك انتهاء محنته.

قال ابن خلدون: وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه واهل دولته والله الفعال لما يريد. وكان عفا الله عنه ايام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه ومما قال في ذلك:

بعدنا وان جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وانفاسنا سكنت دفعة ... كجير الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا ... غربن فتاحت عليها البيوت
فكم جدّلت ذا الحسام الظبا ... وذو البخت كجدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة ... فتى ملئت من كساء التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... بوفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

قلت في اهواء السياسة صيرت لسان الدين الى ما صيرته اليه وما عدوه عليه مما خالف به الشرع وجرى مع الفلسفة نائما في محجة طالما كثر التوكؤ عليها منذ ضعف العلم في هذه

الامة ولو صح ما زعموا اما كان الاجدر بالامناء على الدين وهو في عهد عزه ان يغيروا عليه وينبذوه عن حمى سلطانهم لئلا يستشري افساده للعقائد بما نشره من المصنفات . والقليل الذي انتهى الينا مما خطه يبين لسان الدين بدل ولا جرم على حرية في الفكر لم يحاب معها ولم يداج ولعلها هي التي عدها اعداؤه له من المحنات قال في ترجمة الحاكم باديس بالاندلس في كتابه الاحاطة بعد ان وفاه حقه من الوصف وانه من الملوك الجبابرة فائل الرأي خليع الرسن : وقد ادال اعتقاد الخليفة في باديس بعد وفاته وقدم العهد بتعرف اخبار جبروته وعتوه على الله سبحانه لما جبلهم عليه من الانقياد للاوهام والانصياع للاخاليل فعلى حفرته اليوم من الازدحام بطلاب الحوائج والشفاء من الاسقام حتى اولو الدواب الوجيعة ما ليس على قبر معروف الكرخي وابي يزيد البسطامي . واليك كيف وصف في مكان آخر جعفر بن احمد الخزاعي الغرناطي من مشايخ الطريق قال : ان قومه خرجوا من وطنهم عند تغلب العدو على شرق الاندلس فنزلوا في ربض البيازين جوفي المدينة وارتاشوا وتأثلوا وبنوا المسجد العتيق واقاموا رسم الارادة يرون انهم تمسكوا من طريق الشيخ ابي احمد باثره فلا يفتون بيته ولا يقطعون اجتماعاً على حالهم المعروفة من تلاوة حسنة وايثار ركعات ثم ذكر ثم ترجيع ابيات في طريق التصوف مما ينسب للحسين بن الحلاج وامثاله يعرفونها منهم مشيخة قوالون هم نحول الاجمة وصراديك (لعله صناديد) تلك القطيعة يعيجون بلا بلهم فلا يتشبون ان يحمى وطيسهم ويخلط مرعيهم بالهمل فيرقصون رقصاً غير مساوق للايقاع الموزون دون انحال (؟) الغالية منهم بافراد كلمات من بعض المقول ويكر بعضهم على بعض وقد خلعوا خشن ثيابهم ومرقعات قباطيهم ودرانيكهم (١) فيدوم حالهم حتى يتصببوا عرقاً وقوالهم يحركون فتورهم ويذمرون روحهم يخرجون بهم من قول الى آخر ويصلون الشيء بمثله فربما اخذت نوبة رقصهم بطرفي ليل التمام ولا تزال المشيعة لهم يدعونهم ويحاجون بهم الى منازلهم وربما استدعاهم السلطان الى مصره محضاً لطائف نعيمه باخشيشانهم مبدياً التبرك بهم . الى ان يقول فتسقط فيما بينهم بفلتة سماعه اي المزمار اخوة الطريق وهم اهل سذاجة وسلامة اولو اقتصاد في ملبس واقتيات بادنى بلغة وهم في التعصب نزعة خارجية واعظمهم ما بين مكتسب ومتسبب وبين معالج مدره ومريع حياكة (؟) وبين اظهرهم من الدعرة والصعاليك كثير . والطرق الى الله تعالى على عدد انفاس الخلائق جعلنا الله مما قبل سعيه وارتضى ما عنده ويسره لليسرى .

(١) الدرنيك والدرنوك ضرب من الثياب والبسط جمع درانك ودرانيك والقباطي نوع من الثياب

وقد ترجم لسان الدين نفسه في آخر كتاب (١) الاحاطة ونقل عنه المقري في سبب نكبته ما يأتي ملخصاً : وخلفني يعني اباه عبدالله عالي الدرجة شهير الخطة مشمولاً بالقبول مكنوفاً بالعناية فتقلدني السلطان سرّه ونما يستكمل الشباب ويجتمع السن معززة بالقيادة ورسوم الوزارة واستعملني في السفارة الى الملوك واستنابني بدار ملكه ورمى الى يدي بخاتمه وسيفه وائتمنني على صوان حضرته وبيت ماله وصحوف حرمه ومعقل امتناعه . وبالهلك السلطان ضاعف ولده حظوتي واعلى مجلسي وقصر المشورة على نصحي الى ان كانت عليه الكائنة فاقتدى في اخوه المتغلب على الامر فسجل الاختصاص وعقد القلادة ثم حملها اهل الشحناء من اعوان ثورته على القبض عليّ فكان ذلك ونقبض عليّ ونكث ما ابرم من اماني واعتقلت بحال ترفيه وبعد ان كبست المنازل والدور واستكثر من الحرس وختم على الاعلاق وابرد الى ما ناء (؟) واستؤصلت نعمة لم تكن بالاندلس من ذوات النظائر ولا ربات الامثال في بحر الغلة وفراهة الحيوان وغبطة العقار ونظافة الآلات ورفعة الثياب واستجادة العدة ووفور الكتب الى الآنية والفرش والماعون والزجاج والطيب والذخيرة والمضارب والابنية واكتسحت السائمة وثيران الحرث وظهر الحمولة وقوام الفلاحة والخيل فاخذ ذلك البيع وناهبتها الاسواق وصاحبها البخس ورزأتها الخونة وشمل الخاصة والاقارب الطلب واستخلصت القرى واعملت الحيل وطوّقت الذنوب امدّ الله تعالى بالعون وانزل السكينة وانصرف اللسان الى ذكر الله تعالى وتعلقت الآمال به وطبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت عند افالة العثرة والخلاص من الهفوة

تخلصت منها نكبة مصحفية لفقد في المنصور من آل عامر

ووصلت الشفاعة فيّ مكتوبة بخط ملك المغرب وجعل خلاصي شرطاً في العقدة ومسالمة الدولة فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق الى المغرب وبالغ ملكه في بري : منزلاً رحباً وعيشاً خفضاً واقطاعاً جماً وجراية ما وراءها مرمى وجعلني بمجلسه صدراً ثم اسعف قصدي في تهيوء الخلوة بمدينة سلا منوّه الصكوك مهنأ القرار منفقداً بالليها والخلع مخوّل العقار موفور الحاشية فخلى بيني وبين اصلاح معادي الى ان ردّ الله تعالى على السلطان امير المسلمين ابي عبدالله بن امير المسلمين ابي الحجاج ملكه وصير اليه حقه فطالبني بوعد

(١) ان شئت التوسع في اخبار لسان الدين ومشايخه ونشأته وشعره ونثره فعليك بما كتبه المقري في القرن الحادي عشر من كتاب خصه به وسماه نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب وهو في اربع مجلدات مشهور بين الادباء ومطبوع مرات

ضربته وعمل في القدوم عليه بولده احكمته ولم يوسعني عذرًا ولا فسح في الترك مجالاً فقدمت عليه بولده وقد ساء باساكه رهينة ضده ونغص رهينة الفتح بعده على حال من التقشف والزهد فيما يبدو وعزف عن الطمع في ملكه وزهد في رفده حسبما قلت من بعض المقطوعات :

قالوا لخدمته . دعاك محمد فانتبها وزهدت في التنويه
فاجبتهم انا والمعيمن كاره في خدمة المولى محب فيه

لما عاهدت الله على ذلك وشرحت صدري للوفاء به وجنحت الى الانفصال لبيت الله الحرام تشيدة املي ومرمى نيتي وعملي فعلق بي وخرج لي عن الضرورة واراني ان مؤازرته ابرُّ القرب وراكنني الى عهد بخطه فسح لعامين امد الثواء واقتدى بشعيب صلوات الله عليه في طلب الزيادة على تلك النسبة واشهد من حضر من العلية ثم رمى اليَّ بعد ذلك بمقاليد رأيه وحكم عقلي في اختيارات عقله وغطى من جفاني بحلمه وحثا في وجوه شهواته تراب زجري ووقف القبول على وعظي وصرف هواي في التحول ثانياً قصدي واعترف بقبول نصحي . الى ان قال ومع ذلك فلم اعدم الاستهداف للشرور والاستعراض للمحذور والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون شيمة من ابتلاه الله بسياسة الدهماء ورعاية سخطة ارزاق السفهاء وقتلة الانبياء وعبدة الاهواء ممن لا يجعل لله تعالى ارادة نافذة ولا مشيئة سابقة ولا يقبل معذرة ولا يجمل في الطلب ولا يتلبس مع الله بادب . . .

هذ ما فاساه لسان الدين من ضروب النعم والنقم فعدَّ نردًا في التقلب سفي نعمائه وغريبًا في بلوائه وقد اكتفينا آنفًا بنقل ما قاله فيه ابن خلدون صديقه وما قاله هو في شرح نكبته اوردناه بعبارتيهما الا قليلاً وان اورث هذه الترجمة تطويلاً وذلك لعلمنا بان انشاءها مما ينبغي احتذاه مثاله وجزالة الفاظهما وجودة معانيهما مما يعزُّ نظيره .

الميكروب

اعتراض اهل المذهبين الكيماوي والطرآئي على الحيويين

لم تزد الايام والتجارب مذهب الحيويين الا تحقيقًا وثبوتًا . فبعد ان تقرر بانه اذا منع اختلاط الميكروب بالمواد الآلية المفعمة لن تحصل فيها ظواهر الحياة والاختمار حتى يرتفع حجر عثرة فيحدث الاختلاط عندئذ كائنًا ما كان الاول . لا بد ان تقرر هذه